بسم الله الرحمن الرحيم

الرِّفْقُ بِنَاءُ الْإِنْسَانِ، وَعُمْرَانُ لِلْأَوْطَانِ 25 مُحَرَّم 1448هـ

أُوصِي نَفْسِي وَإِيَّاكُمْ بِتَقْوَى اللهِ؛ فَهِيَ وَصِيَّةُ اللهِ لِلْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾، وَتَقْوَى اللهِ هِيَ امْتِثَالُ الْوَاجِبَاتِ، وَاجْتِنَابُ الْمُحَرَّمَاتِ، وَالتَّوْبَةُ مِنَ السَّيِّئَاتِ.

عِبَادَ اللهِ: مِنَ السَّجَايَا الْجَمِيلَةِ، وَالْخِصَالِ النَّبِيلَةِ فِي مَنْظُومَةِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ فِي الْإِسْلَامِ: خُلُقُ الرِّفْقِ بِأَشْمَلِ مَعَانِيهِ، وَالَّتِي تَعْنِي الِاتِّصَافَ بِاللِّينِ وَالسُّهُولَةِ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، وَالْأَخْذَ بِالْأَسْهَلِ، وَالدَّفْعَ بِالْأَخَفِّ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾. إِنَّهُ الرِّفْقُ الَّذِي يَتَضَمَّنُ الرَّحْمَةَ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَالرِّعَايَةَ لَهُمْ، وَالْبَشَاشَةَ وَالسَّمَاحَةَ فِي التَّعَامُلِ مَعَهُمْ، إِنَّهُ الرِّفْقُ الَّذِي يَجْلِبُ الْبُعْدَ عَنِ الْعُنْفِ بِشَتَّى أَشْكَالِهِ، وَمُخْتَلَفِ صُوَرِهِ، وَالتَّخَلُّصَ مِنَ الْغِلْظَةِ فِي الْمَقَالِ، وَالْفَظَاظَةِ فِي الْأَفْعَالِ، وَالْفُحْشَ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. أَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ»، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، الْمُوَطَّئُونَ أَكْنَافًا، الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ». فَالْمُؤْمِنُ رَفِيقٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَفِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، هَيِّنُ التَّعَامُلِ، رَقِيقُ الْمَعْشَرِ، ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾.

إِنَّهُ الرِّفْقُ الَّذِي يَمَسُّ بِلُطْفِهِ الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ، فَيُحَوِّلُهَا مِنْ قَسْوَتِهَا وَجَفْوَتِهَا إِلَى تَعَاطُفِهَا وَتَجَاذُبِهَا، وَمِنْ شِدَّتِهَا وَغِلْظَتِهَا إِلَى رِقَّتِهَا وَلُطْفِهَا.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ حَثَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الرِّفْقِ، وَبَيَّنَ أَهَمِّيَّتَهُ وَعَظِيمَ شَأْنِهِ، وَأَوْضَحَ ثِمَارَهُ الطَّيِّبَةَ، وَأَنَّهُ سَبَبٌ لِمُضَاعَفَةِ الْحَسَنَاتِ، وَرَفْعِ الدَّرَجَاتِ، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ».

عِبَادَ اللهِ: الرِّفْقُ مَا صَاحَبَ مَسْلَكًا وَلَا عَمَلًا إِلَّا زَيَّنَهُ، وَلَا نُزِعَ مِنْ قَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ إِلَّا شَانَهُ وَكَدَّرَهُ، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الرِّفْقُ سَبَبٌ عَظِيمٌ فِي كَسْبِ مَحَبَّةِ اللهِ تَعَالَى، أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: اسْتَأْذَنَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ [أَيِ: الْمَوْتُ وَالْهَلَاكُ]، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا عَائِشَةُ «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ» قَالَتْ: أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ». وَبِدُونِ الرِّفْقِ فِي الْأَقْوَالِ أَوِ الْأَفْعَالِ أَوِ التَّصَرُّفَاتِ يَفُوتُ خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَمَغْنَمٌ كَبِيرٌ، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهْ، عَنْ جَرِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يُحْرَمُ الرِّفْقَ يُحْرَمُ الْخَيْرَ كُلَّهُ».

فَكُنْ - أَيُّهَا الْمُسْلِمُ - رَفِيقًا رَقِيقًا مَعَ الْآخَرِينَ، هَيِّنًا فِي تَعَامُلَاتِكَ، سَهْلًا لَيِّنًا فِي أَخْذِكَ وَعَطَائِكَ، تَجَنَّبِ الْغِلْظَةَ وَالْخُشُونَةَ، وَالْجَفْوَةَ وَالرُّعُونَةَ، وَانْأَ بِنَفْسِكَ عَنِ الْفَظَاظَةِ وَالشِّدَّةِ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ فِي الْجَوَانِبِ الْخَيِّرَةِ؛ كَالدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَضْلًا عَنِ التَّصَرُّفَاتِ الْحَيَاتِيَّةِ، وَالتَّعَامُلَاتِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ. أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ، أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ: عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ سَهْلٍ».

عِبَادَ اللهِ: الرِّفْقُ بِهَذَا الْمَعْنَى الشَّامِلِ لِكُلِّ مَجَالَاتِ الْحَيَاةِ مَطْلُوبٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، رِفْقُ الْوَالِي بِرَعِيَّتِهِ، رِفْقُ الْقَاضِي فِي قَضَائِهِ، رِفْقُ الْمَسْؤُولِ لِمَنْ هُوَ تَحْتَ مَسْؤُولِيَّتِهِ، رِفْقُ الْوَالِدِ بِوَلَدِهِ، رِفْقُ الزَّوْجِ بِزَوْجَتِهِ. أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالعُنْفَ، أَوِ الْفُحْشَ» قَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ، رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ، فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ»، وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مِنْ أَوْجَبِ أَنْوَاعِ الرِّفْقِ: رِفْقُ رَبِّ الْعَمَلِ بِمَنْ يَعْمَلُ لَدَيْهِ، وَأَنْ يَتَجَنَّبَ الشِّدَّةَ وَالْغِلْظَةَ مَعَ الْعَامِلِينَ مَعَهُ، أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي: أُفٍّ، وَلَا: لِمَ صَنَعْتَ؟ وَلَا: أَلَّا صَنَعْتَ»، وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ»، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَهْلِ بَيْتٍ خَيْرًا أَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الرِّفْقَ».

عِبَادَ اللهِ: اسْتَقِيمُوا عَلَى تِلْكَ الْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ، وَالشَّمَائِلِ النَّبِيلَةِ تَفُوزُوا بِالْجَنَّاتِ، وَرِضَا رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ، أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ، فَقَالَ: «تَقْوَى اللَّهِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: ذَكَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنَّ الْحِكْمَةَ هِيَ وَضْعُ الْأَشْيَاءِ مَوَاضِعَهَا، فَلَا شِدَّةَ فِي مَوْضِعِ اللِّينِ، وَلَا لِينَ فِي مَوْضِعِ الشِّدَّةِ، فَمَنْ وَضَعَ الضَّعْفَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي قَدْ يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى إِظْهَارِ الْقُوَّةِ لَمْ يَكُنْ حَكِيمًا، وَمَنْ وَضَعَ الْقُوَّةَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى التَّسَامُحِ لَمْ يَكُنْ حَكِيمًا، وَقَدْ صَدَقَ الْمُتَنَبِّي حِينَ قَالَ:

وَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلَا مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ وَضْعَ الْعَطَاءِ مَوْضِعَ السَّيْفِ مُضِرٌّ

وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ:

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا فَلْيَقْسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرْحَمُ

عِبَادَ اللهِ: لَيْسَ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا كَانَ سَبَبًا فِي فَسَادِ الْمَرْحُومِ وَهَلَاكِهِ، كَمَا يَفْعَلُ كَثِيرٌ مِنَ الْآبَاءِ مِنْ تَرْكِ تَرْبِيَةِ الْأَبْنَاءِ وَتَأْدِيبِهِمْ وَعُقُوبَتِهِمْ رَحْمَةً بِهِمْ، وَعَطْفًا عَلَيْهِمْ، فَيَتَسَبَّبُونَ فِي فَسَادِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ»، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ شُمَيْسَةَ الْعَتَكِيَّةِ قَالَتْ: ذُكِرَ أَدَبُ الْيَتِيمِ عِنْدَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَتْ: إِنِّي لَأَضْرِبُ الْيَتِيمَ حَتَّى يَنْبَسِطَ. وَأَخْرَجَ أَيْضًا، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ أَسْمَاءَ بْنِ عُبَيْدٍ قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ سِيرِينَ: عِنْدِي يَتِيمٌ، قَالَ: اصْنَعْ بِهِ مَا تَصْنَعُ بِوَلَدِكَ، اضْرِبْهُ مَا تَضْرِبُ وَلَدَكَ.

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى»: مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ أَلَمَ الْعِلَاجِ النَّافِعِ أَيْسَرُ وَأَخَفُّ مِنْ أَلَمِ الْمَرَضِ الْبَاقِي؛ وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ لَك أَنَّ الْعُقُوبَاتِ الشَّرْعِيَّةَ كُلَّهَا أَدْوِيَةٌ نَافِعَةٌ، يُصْلِحُ اللَّهُ بِهَا مَرَضَ الْقُلُوبِ، وَهِيَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ، وَرَأْفَتِهِ بِهِمْ، الدَّاخِلَةِ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، فَمَنْ تَرَكَ هَذِهِ الرَّحْمَةَ النَّافِعَةَ لِرَأْفَةٍ يَجِدُهَا بِالْمَرِيضِ فَهُوَ الَّذِي أَعَانَ عَلَى عَذَابِهِ وَهَلَاكِهِ، وَإِنْ كَانَ لَا يُرِيدُ إِلَّا الْخَيْرَ؛ إِذْ هُوَ فِي ذَلِكَ جَاهِلٌ أَحْمَقُ، كَمَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ الْجُهَّالِ بِمَرْضَاهُمْ، وَبِمَنْ يُرَبُّونَهُ مِنْ أَوْلَادِهِمْ وَغِلْمَانِهِمْ وَغَيْرِهِمْ، فِي تَرْكِ تَأْدِيبِهِمْ وَعُقُوبَتِهِمْ عَلَى مَا يَأْتُونَهُ مِنَ الشَّرِّ، وَيَتْرُكُونَهُ مِنَ الْخَيْرِ رَأْفَةً بِهِمْ، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبَ فَسَادِهِمْ، وَعَدَاوَتِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ.

وَقَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «إِغَاثَةِ اللَّهْفَانِ مِنْ مَصَايِدِ الشَّيْطَانِ»: وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ: أَنَّ الرَّحْمَةَ صِفَةٌ تَقْتَضِي إِيصَالَ الْمَنَافِعِ وَالْمَصَالِحِ إِلَى الْعَبْدِ، وَإِنْ كَرِهَتْهَا نَفْسُهُ، وَشَقَّتْ عَلَيْهَا، فَهَذِهِ هِيَ الرَّحْمَةُ الْحَقِيقِيَّةُ، فَأَرْحَمُ النَّاسِ بِكَ مَنْ شَقَّ عَلَيْكَ فِي إِيصَالِ مَصَالِحِكَ، وَدَفْعِ الْمَضَارِّ عَنْكَ. فَمِنْ رَحْمَةِ الْأَبِ بِوَلَدِهِ: أَنْ يُكْرِهَهُ عَلَى التَّأَدُّبِ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَيُشِقَّ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ بِالضَّرْبِ وَغَيْرِهِ، وَيَمْنَعَهُ شَهَوَاتِهِ الَّتِي تَعُودُ بِضَرَرِهِ، وَمَتَى أَهْمَلَ ذَلِكَ مِنْ وَلَدِهِ كَانَ لِقَلَّةِ رَحْمَتِهِ بِهِ، وَإِنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَرْحَمُهُ وَيُرَفِّهُهُ وَيُرِيحُهُ، فَهَذِهِ رَحْمَةٌ مَقْرُونَةٌ بِجَهْلٍ، كَرَحْمَةِ الْأُمِّ؛ وَلِهَذَا كَانَ مِنْ تَمَامِ رَحْمَةِ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ: تَسْلِيطُ أَنْوَاعِ الْبَلَاءِ عَلَى الْعَبْدِ؛ فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِمَصْلَحَتِهِ، فَابْتِلَاؤُهُ لَهُ وَامْتِحَانُهُ، وَمَنْعُهُ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ أَغْرَاضِهِ وَشَهَوَاتِهِ مِنْ رَحْمَتِهِ بِهِ، وَلَكِنَّ الْعَبْدَ لِجَهْلِهِ وَظُلْمِهِ يَتَّهِمُ رَبَّهُ بِابْتِلَائِهِ، وَلَا يَعْلَمُ إِحْسَانَهُ إِلَيْهِ بِابْتِلَائِهِ وَامْتِحَانِهِ.